انتشار الإسلام والعربية بالمغرب

الوافي نوحي
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية-الرباط

تمهيد:

شهد المغرب الأقصى منذ بداية العصر الوسيط جملة من التغيّرات مسّت وضعه الديني واللغوي. فبوصول المسلمين إلى البلاد سنة 62هـ/ 682م، دخلت المنطقة عصراً مختلفاً، تخلخلت فيه البنيات المجتمعية، بصفة كليّة أو جزئيّة. فالإسلام بكونه ديناً جديداً بما حمل من القيم والمبادئ، وجد بعضُها أرضاً خصبة باعتبار "الماضي التوحيدي" للمنطقة؛ وكذا اللغة العربية بوصفها وعاءً للإسلام وحاملاً له، والتي تداخلت مع اللغة (أو اللغات) الموجودة في المجال وقتئذ، فضمنت لها موطئ قدم، وإنْ بشكل تدريجي امتدّ على قرون.

نود أن نتوقف هنا عند أمرين اثنين، يتعلق أحدهما بوصول المسلمين إلى البلاد وحيثيات إسلام المغاربة. ويتصل ثانيهما بالوقوف على مظاهر المشهد اللغوي، منذ الحضور الأول والمحدود للعربية (العصران الإدريسي والمرابطي) وصولاً إلى العصرين الموحدي والمريني، حيث الحضور المكثف للعنصر العربي الذي ساهم في توسيع رقعة اللّغة العربية وزاد من نسبة تملكها للمجال.

1- **الأسلمة**:

تكاد تُجمع المصادر التاريخية والجغرافية وغيرها التي أرخت لأسلمة بلاد المغرب، على مسألتين اثنتين: أولها، أن وصول الإسلام إلى المغرب الأقصى كان على يد عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/ 682م. وفي طليعة تلك المصادر، **فتوح إفريقية** للواقدي، و**فتوح مصر وأخبارها** لابن عبد الحكم، وفتوح البلدان للبلاذري، و**البيان المغرب** لابن عذاري، و**كتاب الأنساب** لابن عبد الحليم، وغيرها. رغم النقاش الذي أذكته هذه المسألة من تشكيك بعض الباحثين المعاصرين في أمر دخول عقبة المغرب الأقصى بالمطلق، وأن منتهاه كان هو وادي شلف بالمغرب الأوسط. قال بذلك، مثلاً، روبير برانشفيك (Robert Brunschwig) الذي نشر سنة 1932، بحثاً حول رواية **ابن عبد الحكم** لفتح المغرب،

- Brunschwig (Robert): «*Ibn ‘Abd al-hakam et la conquête de l’Afrique du Nord par les Arabes, étude critique*», in : **AIEO**, Alger, VI, 1932, pp : 108-155.

أشار فيه إلى كون المعطيات التي توفرها النصوص، وقتئذ، لا تسمح بالقول ببلوغ عقبة المغرب الأقصى، وتبعه في هذا الرأي طائفة من الباحثين.

واستمر هذا الرأي في أوساط المهتمين إلى أن عثر ليفي بروفنسال (Lévi Provençal)، منتصف القرن العشرين، على مخطوط **"كتاب الأنساب"** لصالح بن عبد الحليم الأيلاني، فأعاد المسألة للنقاش من جديد، بسبب ما تضمنه الكتاب من معلومات دقيقة عن المسار الذي سلكه عقبة منذ قفوله من المغرب الأوسط، وما كان من لقائه بالأمير يوليان في طنجة، إلى وصوله بلاد المصامدة بالأطلس الكبير وانتهاء مساره بسوس. مع ذكره للمواقع ونقط العبور بشكل يسمح برسم خريطة واضحة لها، خاصة وأن بعض تلك المواقع لا يزال قائماً إلى الآن.

عمد بروفنسال إلى دراسة مخطوط الأيلاني، ونشر عنه المقال المشهور، الذي حظي باحتفال مؤرخي الفتح، وكل المهتمين ببدايات الإسلام بالمغرب:

- Provençal (Lévi) : «*Un nouveau récit de la conquête de l’Afrique du Nord par les Arabes*», in : ***Arabica***, 1 (1954), pp. 17–52.

وتُرجم المقال إلى العربية بعناية حسين مؤنس، ونشره بمدريد مع تعليقات وافية:

بروفنسال، ليفي: "نص جديد عن فتح العرب للمغرب"، **صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد**، 2، 1954، ترجمة وتعليق: حسين مؤنس ص ص: 193-239.

كما اهتم بالمخطوط كذلك الأستاذ محمد يعلى، فاختاره، مع نصيْن آخريْن، للتحقيق في إطار أطروحة الدكتوراه بجامعة مدريد، سنة 1993، وطبع بالرباط سنة 2023.

كتاب الأنساب لابن عبد الحليم (ق 8هـ/14م)، تحقيق محمد يعلى، الرباط، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2023.

واعتنى الأستاذ أحمد التوفيق، من جهته، بكتاب **الأنساب** هذا، فأنشأ بخصوصه مقالاً ضمّنه تفسيره "للسهولة والانسيابية" التي طبعت تجول عقبة وصحبه في بعض جبال المغرب ومنبسطاته.

التوفيق، أحمد: "عودة إلى البحث في ظروف انفتاح المغرب الأقصى للإسلام"، ضمن كتاب: **المحلي والشمولي في كتابة التاريخ الاجتماعي**، أعمال مهداة للأستاذ العربي مزين. 201219-29.

كما تناول الأستاذ التوفيق الموضوعَ في مناسبات أخرى عديدة.

وثاني المسألتين في موضوع إسلام المغاربة، هو أن دخول عقبة المغرب الأقصى وتجوله فيه كان مطبوعاً، في عمومه، بالمسالمة والمهادنة، وبشكل ملحوظ. فهذا ابن عبد الحكم (ت. سنة 257هـ/ 870-71م) يصف المسألة بقوله: "وأهل السوس بطن من البربر يقال لهم أنبية، فجوّل [أي عقبة] في بلادهم لا يعرض له أحد ولا يقاتله، فانصرف إلى إفريقية". وهو نفس ما نجده عند قدامة بن جعفر (ت. 320هـ/ 932م) **كتاب الخراج وصناعة الكتابة**: "فلما ولي الأمر يزيد بن معاوية رد عقبة بن نافع إلى عمله من المغرب [بعد أن عزله معاوية]، فغزا السوس الأدنى وهو خلف طنجة، وجوّل فيما هناك لا يعرض له أحد بقتال فانصرف".

أما ابن عذاري المراكشي وابن عبد الحليم الأيلاني (8هـ/ 13م): فقد كانا أكثرَهم تفصيلاً، عندما بسطا القول في وصول عقبة إلى طنجة ولقاء حاكمها يُليان الغماري، الذي يبدو أنه تفهم سبب مقدم عقبة، فلم يشأ أن يقاتله بل اجتمع به بعد أن بعث اليه رُسله الذين تلقوه قبل وصوله، وأدّوا له الهدية التي تليق بمقامه.(ابن عذاري: "حتى صار [يقصد عقبة] بأحواز طنجة، وكان بها ملك اسمه يلْيان (...) فلما قاربه، وجّه اليه أرساله مستعطفاً ومستلطفاً، وبعث له هدية عظيمة، وسأل منه المسالمة، وأن ينزل على حكمه، فقبل منه واجتمع به".

وتتبع ابن عذاري خط سير عقبة من لقاء طنجة المذكور إلى حين قفوله إلى القيروان في مشاهد تشي بالسهولة والانسيابية التي طبعت جولته "فسار عقبة نحو المصامدة بعد فتحه طنجة على ما ذكرنا من الصلح والمسالمة بسياسة يلْيان (...) قال ابن عبد البر: فتح عقبة عامة بلاد البربر إلى أن بلغ طنجة، وجال هنالك، ولا يقاتله أحدٌ ولا يعارضه، حتى فتح كورة من كور السودان".

غير أن الإسلام لم يعرف استقراراً بالمغرب إلا في مراحل لاحقة، مروراً بزمن موسى بن نصير وطارق بن زياد وصولاً إلى عصر الأدارسة الذين كانوا يقاتلون قبائل لم تسلم بعد في أنحاء متفرقة من المغرب.

غير أن المغرب شهد، منذ وصول عقبة إلى المغرب وإسلام العديد من قبائله على يديه، تفاعلات عقدية ومذهبية وثقافية أسهمت فيها مؤثرات مشرقية وأخرى محلية، ولعل هذا ما أسهم في تأجيل حصول الوحدة الدينية للمجتمع المغربي حتى أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، عندما تمكن المرابطون من القضاء على النحلة الشيعية في سوس، وإضعاف برغواطة تامسنا، وتوحيد البلاد على أساس المذهب المالكي.

ولعل فهم ظروف وملابسات السهولة والسلاسة والانسيابية النسبية التي صاحبت المسلمين الأوائل إلى المغرب الأقصى يساعد على تفسير كيف أنه كان أقلَّ أصقاع بلاد المغرب مقاومةً للفاتحين المسلمين، كما أنه يفسر إقبال الأمازيغ على اعتناق الإسلام، بل والانخراط فيه والدعوة إليه بشكل لافت. فقد استلهم

المغاربة مبادئ الثقافة الإسلامية الوافدة، وتأقلموا معها، بالرغم من بُعد المغرب الأقصى عن المشرق الإسلامي. ولوحظ إقبالهم على المذاهب التي وصلت إليهم، فكانوا يتفانون في الدفاع عن المبادئ التي يتبنونها. مع ميول ظاهر للفكر الخارجي المبني على نشدان العدل، ورفض الظلم، ولعل ذلك كان نتيجةَ ما لاقوه من تعسف وجوْر في ممارسة السلطة، وهم الذين تمثلوا الإسلام باعتباره دين عدل ومساواة.

2- **التعريب:**

صاحب انتشار الإسلام في المغرب الأقصى انتشارٌ نسبي للّغة العربية التي أطلت على المجتمع الأمازيغي في البداية كلغة للشعائر الدينية والإدارة، فاستطاعت أن تحتل بالتدريج مكانتها بسبب "صبغة القداسة التي اكتسبتها لدى الأمازيغ باعتبارها لغة القرآن الكريم؛ وصبغة الوظيفة باعتبارها لغة الثقافة والكتابة والتسيير الإداري". وشهد المغرب بشكل مطّرد توافد أعداد من العرب، سواء من الجنود أو الدعاة، أو من المهاجرين. غير أن المصادر لا تسعفنا في تكوين تصور عن الوضع اللغوي خلال الفترات الأولى من العصر الوسيط، خاصة في العصر الإدريسي. غير أن ما يمكن الوقوف عليه هو استقبال مدينة فاس في عهد إدريس الثاني لهجرتين عربيتين متفاوتتين في الحجم، ولا شك كان لهما الأثر في نشر اللغة العربية بشكل من الأشكال:

- الهجرة الأولى، كانت لعرب إفريقية، وتشكلت من بعض القبائل العربية، وكان قوامها حوالي **ثلاثمائة بيت؛**

- الهجرة الثانية، لربضيّي قرطبة بالأندلس، خاصة سكان ربض شقندة، الذين تمّ إجلاؤهم عن قرطبة بعد فشل ثورتهم على الأمير الحَكَم الأول بن هشام بن عبد الرحمن الأموي (180-206هـ/ 796-822م)، والتي اندلعت يوم 13 رمضان 202هـ/ 25 مارس 818م، فهُجّروا وتفرقوا في أنحاء الأندلس، ولجأ قسم منهم إلى الاسكندرية، وقسم آخر إلى فاس قوامه **ثمانية آلاف بيت** (ابن أبي زرع (ت. 726هـ/ 1325م): **الأنيس المطرب/** الجزنائي، علي (ق. 9هـ/ 15م): **جَنَى زهرة الآس فى بناء مدينه فاس**).

وفي العصر المرابطي، يظهر أن البعد اللغوي كان حاضراً عند اختيار وَگّاگْ بن زلو اللّمطي لعبد الله بن ياسين وانتدابه ليعلم قبائل الصحراء تعاليم الاسلام ويفقهها فيه. ذلك لأن العربية لم تعرف تجذّراً بالمنطقة، شأنها في ذلك شأن الإسلام. ومن تمّ فإن اللسان الصنهاجي كان وسيلة التواصل مع القوم.

هذا في مرحلة الدعوة المرابطية، أما في مرحلة الدولة، فبالرغم ممّا عُرف عن المرابطين من تثبيتهم المذهب المالكي بالمغرب، والذبّ عنه وتعميم المعرفة به بنشر أدبياته ومصادره، وتشجيع الناس على التمسك به...، فقد كان يُذكر عن يوسف بن تاشفين أنه "لا يعرف اللّسان العربي، لكنه كان يُجيد فهم المقاصد" ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت. 681هـ/1282م): **وفيات الأعيان**.

فضلاً عن أن الأمير يوسف كان "غير محسنٍ لعلم العربية والتصريف، وكان على كبَر سنّه يتعلمها" الزاياني، أبو القاسم (ت. 1249هـ/1833م): **الترجمان المعرب**، لذا فقد "كان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية". وقد كانت لابن تاشفين اتصالات متعددة مع المعتمد بن عباد أمير إشبيلية، في شكل مراسلات ولقاءات، ولاشك أنهما كانا يتواصلان عند اللقاء بواسطة ترجمان. وتضمنت **رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس** إشارات تدل على ذلك.

وفي العصر المرابطي كذلك، وردت أَماراتٌ عن انخراط بعض العناصر العربية في الجيش، خاصة في الجواز الثاني لعلي بن يوسف إلى الأندلس. وعموماً، فإن العلم بالعربية في ذلك العصر، كان مقتصراً على النخبة من العلماء والفقهاء وطلاّب العلم.

غير أن الوجود العربي بالمغرب سيشهد كثافة في العصر الموحدي، باستقدام الخليفة يعقوب المنصور قبائل بني هلال من إفريقية، كما توافد عرب بني معقل في مراحل لاحقة. وقد ساهم هذا في

تعريب المجتمع المغربي بفعل المجاورة والمعايشة، فضلاً عن "التعريب الذاتي" الذي كان يمارسه العلماء والنخبة وطلبة العلم.

وللوقوف ببعض التفصيل على الخريطة اللغوية للمغرب الأقصى ومسلسل انتشار العربية به خلال العصر الوسيط، يلزم الإلمام ببعض المعطيات من خلال مشاهد أربعة:

- **المشهد الأول**: من مرحلة حكم الولاة إلى نهاية العصر المرابطي، والذي عرف سيادة اللغة الأمازيغية، ومحدودية استعمال اللغة العربية، إلا عند النخبة من العلماء وبعض رجالات الدولة.

مشهد اتسم بطابع اللاّمركزية الجهوية وتنوع المرجعيات: من القطيعة مع الحكم الأموي للمغرب بفعل ثورة الخوارج سنة 122 أو 123ه (740-741م) إلى منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وما ميّزها من تأسيس كيانات جهوية مختلفة المذاهب (سنة وشيعة وخوارج) التي حافظت على اللغة العربية، لغة الدين الجديد، ومختلفة الديانات (بورغواطة بتامسنا، وحاميم بغمارة) التي استقلت لغوياً؛

دُشّنت فترة قيام الحكم المركزي السني بالمغرب بقيام دولة المرابطين بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، والتي اعتمدت "أسلوب التوسع الممركز وتوحيد المجال باسم السنة والإسلام والسهر على نشر مذهب مالك"، ونجحت في توحيد المعتقَد ومحاربة الكيانات التي "مَرَقت" من الإسلام وأقصت اللغة العربية، التي أصبحت مع المرابطين لغة الدواوين الرسمية على كل مجال حكمهم الممتد من الأندلس إلى تخوم نهر السنغال؛

- **المشهد الثاني:** يتجسّد في العصر الموحدي، وما ارتبط به من استقدام القبائل العربية خلال القرن 6هـ/ 12م، وما نجم عن ذلك من تغيير للوضع اللغوي. فقد كان رصد تحركات القبائل المستقدَمة ومناطق نفوذها. وكان إنزال العرب الهلالية بالسهول والأرياف الدفعة التي أعطت للتعريب قوته، خاصة على المستوى المجالي. وبما أن المنطقة عرفت ما يكفي من الحركية السكانية، خاصة أواخر الحكم الموحدي عندما فقدت السلطة الموحدية جل مقوماتها، مما شجع القبائل الهلالية على الانتشار والتحرك، فإن كان لهذه التحركات عميق الأثر في انتشار اللغة العربية وحمولتها من أعراف وتقاليد. مع استحضار الظروف التي ساهمت في تعريب المدن الموحدية، بفعل الهجرة الأندلسية لتتجه بالمجتمع الحضري من جديد نحو التعريب.

وتعميقاً لمسألة التعريب، فقد كان للدولة الموحدية دور أساس في إرساء هياكل تنظيمية كانت السيادة فيها للغة العربية التي ظلت مرعية في الشؤون الإدارية. وحظي ديوان الرسائل بأهمية خاصة ساهمت في استمرار ترسيخ اللغة العربية لغةً للكتابة، وكذا هيئة الحُفّاظ التي أنشئت لتخريج كفاءات ذات خبرة ودراية في مجال التدبير. ولا شك أن هذا الإجراء ساهم في تعزيز الإدارة الموحدية بعناصر ذات ثقافة عربية.

فلم يشذ الموحدون، الذين خلفوا المرابطين منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) عن هذا، فقد بقيت اللغة العربية لغة الحياة الرسمية بوجه عام، مع استعمال اللسان المصمودي في نشر الدعوة بالأطلس وخارجه:

(انظر نماذج من استعمال ابن تومرت للسان الغربي (المصمودي) في نشر دعوته عند:
أبو بكر بن علي الصنهاجي، (المكنى بالبيدق): **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**)

مع اشتراط الموحدين معرفة هذه اللغة وحفظ "التوحيد" التومرتي بها عند تعيين أئمة المساجد بفاس (الجزنائي، علي: **جنى زهرة الآس**). الأمر الذي جعل من النصف الثاني من القرن السادس الهجري "منعطفاً هاماً ربما اعتُبر مصيرياً" بالنسبة للمسار اللغوي بالمغرب، حيث بدأت تتعايش اللغتان بغالب الاقاليم والجهات؛

- **المشهد الثالث:** مثّله ظهور العامية المغربية خلال العصر المريني. وفي هذه المرحلة اكتمل "الكيان النوعي الخاص بهذه اللغة" باستقرار القبائل الهلالية مع منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، حيث ظهرت بمسحة عامية دارجة، تجسدت في الأرجوزة المشهورة (**ملعبة الكفيف الزرهوني/** تحقيق محمد بن شريفة، الرباط، المطبعة الملكية، 1987) التي تضمنت وصفاً لحملة السلطان المريني ابي الحسن المريني إلى المغرب الأوسط وإفريقية (ق7هـ/ 13م)؛

- **المشهد الرابع:** يتجلى في ظهور اللّسان العربي الحساني، الذي ساد أقصى الجنوب الغربي من الصحراء المغربية مع منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، مع امتداد قبائل عرب بني معقل الرحل إلى الصحراء. واليها ينتمي ذووا حسان الذين اشتقت منهم تسمية هذا اللسان. (للتوسع في موضوع المشاهد الأربعة. يُنظر القبلي، محمد: "حول بعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب"، ضمن: **جذور وامتدادات، الهوية واللغة والإصلاح بالمغرب الوسيط**، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط1، 2006، ص ص: 41-52).

وفي الأخير، يمكننا تمثل اللوحة التي رسمها الحسن الوزان، في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، للتشكيلة اللغوية-الجغرافية خلال الفترة الوسيطية، عندما ذكر أن العرب "الذين جاؤوا الى افريقيا يُدعون بالعرب المستعجمة والعرب المتبربرة، لأن لغتهم فسدت مع طول الزمن لمساكنتهم أمة اجنبية فأصبحوا برابرة". واصفاً الأحوال اللغوية للأمازيغ الذين ميّز فيهم بين خمسة شعوب: صنهاجة، ومصمودة، وزناتة، وهوارة، وغمارة "هذه الشعوب الخمسة المنقسمة إلى مئات السلالات وآلاف المساكن تستعمل لغة واحدة تطلق عليها اسم **أوال أمزيغ**، أي الكلام النبيل، بينما يسميها العرب البربرية. وهي اللغة الأفريقية الأصيلة الممتازة والمختلفة عن غيرها من اللغات".

وختاماً، فإن المجموعات البشرية التي وفدت على المغرب هي التي صنعت خريطته اللغوية عبر التاريخ، بدءا بالأمازيغ الذين استوطنوا المنطقة منذ أقدم العصور، ثم العرب الذين توافدوا على البلاد منذ الفتح الإسلامي، فشكلت المجاورة والمعايشة أهم وسيلة للتعريب، خاصة في المدن وأحوازها، فالعناصر العربية الأولى المهاجرة استوطنت المدن والأمصار باعتبارها مراكز جذب لنخبة الفقهاء والعلماء، والتي كان لها دور في تنظيم الإدارة والتعليم. وهكذا ظهر التعريب في المدن قبل البوادي، ولم يمتد إلى هذه الأخيرة إلا لاحقا مع قدوم القبائل العربية الهلالية خلال العصرين الموحدي والمريني.

كما لا ننسى دور المؤسسات الدينية والتعليمية في نشر اللغة العربية مثل المساجد، والكتاتيب، والرباطات وغيرها. ويدل انتشار هذه المؤسسات على احتكاك الناس باللسان العربي، خصوصا أنها مؤسسات تتصل بعامة الناس. أما انتحال بعض الاسر الحاكمة خلال العصر الوسيط للنسب العربي والشريف، فقد كان له دور إيجابي في مسألة التعريب. التي زاد من مستواها الاندماج في الثقافة العربية. ويبدو أنه اندماج تحكمت فيه إرادة الخلفاء والعلماء، والصلات الثقافية، وعلاقات التجاذب التي ربطت بين المغرب الأقصى وباقي أقطار المشرق الإسلامي، حيث شكلت الرحلة العلمية جسرا مرت عبره الثقافة العربية في شكلياتها ومضامينها، لتصبح بعد ذلك مؤهلا أساسيا لشغل المناصب الكبرى.